ISSN 0970-3713

مجلة علمية ثقافية ، جامعة، فصلية

ثقافة الهند

المجلد ٥٣ العدد ١

٢٠٠٢م

رئيس التحرير

س ضياء الحسن الندوي

المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

ازاد بهاون، نيو دلهي

الهند

محتويات العدد

مكتبة الإسكندرية

دراسة نقدية تحليلية لبيانات المؤرخين الأوربيين والعرب حول نسبة إحراق المكتبة إلى عمرو بن العاص

بقلم: سماحة الأستاذ شبلي النعماني تعريب : ولي أختر الندوي

إن حادث إحراق مكتبة الإسكندرية من الأكاذيب التي شاعت عن التاريخ الإسلامي في أوربا في سالف الزمان، و لم تزل تلقى القبول حتى عصرنا هذا.

و رغم أنه قد تيسرت لأوربا ، منذ زمن طويل، وسائل ومصادر للإطلاع على أحوال المسلمين، و لكن الزمن الذي ظهر فيه علم التاريخ الجديد يتزامن الحروب الصليبية. و كل ما عرفت أوربا عن المسلمين في هذا الزمن هو أنهم محاربون و مغيرون ووحوش. و فوق ذلك كله، إنهم أعداء الصليب المقدس و بيت المقدس قبلة المسيحيين. و هذا هو الزمن الذي خرجت فيه أديبا من

عصرنا المظلم. فقد صرح معظم المؤرخين أن نهضة أوربا العلمية و الحضارية بدأت في هذا الزمن بالذات.

و في هذا الزمن شاعت حكايات عجيبة عن المسلمين في أوربا. و إن الأوضاع السائدة آنذاك كانت طبعا تستلزم ذلك. و إن ما شاعت من الحكايات المنتحلة في أوربا عن المسلمين و قوميتهم واجتماعهم و حضارتهم قد تلقت القبول العام، مع انقضاء الوقت، لحد أن انطلقت بها ألسنة عامتهم و خاصتهم على حد سواء. ثم لما استهل عهد التأليف و التصنيف، وجدت هذه الحكايات طريقها إلى كتب التاريخ و القصص و الروايات، حتى تطرقت إلى كتب الفلسفة أيضا بكثرة. وإن Bacon، الذي يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة في أوربا، كتب في مقال من مجموعة مقالاته التي تسمى Bacon's Essays تمثيلا للجرأة و البسالة:

"ذات يوم كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يؤكد للناس بنبوته، فقال للحضور : اذهبوا إلى هذا الجبل، و قولوا له إن محمدا استدعاك. فذهب الناس إلى الجبل، و أعادوا له قول محمد، فلم يكن الجبل ليتزحزح عن مكانه. لما رأى محمد (صلى الله عليه وسلم) ذلك فلم يستحي، و قال بكامل الجرأة و رباطة الجأش : لا بأس، إذا لم يأت الجبل إلى محمد فإن محمدا يمكنه أن يذهب إلى الجبل."

لم يكن بيكون مؤرخا، و لا أرى أنه كتب هذه الواقعة بغية النيل من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إنه أورد هذا المثال للإشادة بالجرأة و رباطة القلب. و لكن بما أن أمثال هذه الحكايات

والأكاذيب كانت قد شاعت شيدعا عاما في أوربا كلها، فكان الخاصة و العامة يروونها بدون أدنى كلفة، و كانوا يؤمنون بصدقها.

منذ زهاء قرن و نصف، توجهت أوربا إلى البحث والدراسة، و بدأ ينكشف خطأ أمثال هذه الحكايات يوما فيوما، حتى أخذ بعض مؤرخي أوربا الكبار يعترفون بأن هذه الحكايات مجلبة للعار و الخزي لأوربا. فقد كتب السيد/ كارلايل في كتابه Lectures in the Heros:إن الأكاذيب التي نحلها رجال الدين هذا الرجل (يريد محمدا صلى الله عليه وسلم) مسببة للعار و الخزي لنا. كان كارلايل كتب هذه المحاضرة حول الرسول صلى الله عليه وسلم بوجه خاص. فخصه بالذكر، و إلا شاعت أمثال هذه الأكاذيب في أوربا عن دين الإسلام و التاريخ الإسلامي أيضا. و إن الدراسات الجديدة، و إن قللت عدد هذه الأكاذيب، و لكنها لم تستطع أن تقضي عليها بصورة نهائية. لأن الوقائع التي شاعت في أوربا، من أدناها إلى أقصاها، على هذا النطاق الكبير، لا يرغب في دراستها و البحث عنها إلا الذين لا يقيمون و زنا لمعارضة عامة الناس لهم، و قليل ما هم.

و هناك سبب آخر، و هو أن نطاق الباحثين في كل أمة يختلف عن نطاق عامة الناس. و إن الوقائع التي يسلم بصحتها الباحثون بعد دراستها و النظر فيها تكون جديرة بالقبول، و لكن دراستهم تنحصر في دائرة خاصة، و لا تلقي الرواج بين عامة الناس، و في عامة المؤلفات. و إن باحثي أوربا الكبار لا يسلمون بصحة الروايات التي شاعت فيها عن الوقائع و الأحداث الإسلامية،

فقد نفي غيبيون، كارلايل، و غاد خري، و هيجنز، و بارسورث، ورينان، و سيديو و غيرهم بصورة عامة صحة هذه الوقائع، غير أنه لم يضعف سلطان هذه الأكاذيب في عامة الكتب و الحكايات.

و من بين هذه الوقائع و الأحداث الملفقة المنحولة حادث إحراق المكتبة المتواجدة في مدينة الإسكندرية.

إن الطريقة التي أثارت و أشاعت بها أوربا هذه الواقعة، لمثيرة للعجب حقا، فانه لا يخلو أي من كتب التاريخ و الروايات و القصص و الأمثال السائرة من ترديد صدى هذه الواقعة. خل المؤلفات الأدبية، إن كتب المنطق و الفلسفة أيضا قد تطرقت إليها هذه الواقعة،فقد تضمنت أسئلة مادة علم المنطق لاختبارات اف. ايه. لجامعة كالكوتا الهندية المنعقدة عام ١٨٨٢م سؤالا لحل المغالطة التالية:

"إذا كانت الكتب موافقة للقران الكريم فلا حاجة إليها، و إذا كانت معارضة له فيجيب إبادتها."

و من الجدير بالاعتناء هنا، لماذا أبدت أوربا هذا القدر من التعاطف مع مكتبة الإسكندرية ؟ فإنه لا مراء فيه، أنه لا علاقة للمسيحيين بالمكتبة التي نبحث عنها. إنما كان أنشأها ملوك مصر الذين كانوا يعبدون الأصنام، و كانوا قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بزمن ليس بقليل. قد يقال إن هذا نتيجة تقدير أوربا للعلم وكتبه، لكن لماذا يخصون مكتبة الإسكندرية فحسب بعنايتهم؟ فإنه قد أبيدت مكتبات كبيرة في هذه الدول نفسها، فهل حرك ذلك مساكن

أوربا؟ و من الذين شجبوا قيام إسكندرية بإبادة المكتبات الإيرانية؟ ومن ذرفت عيونه على ما أبا و المسيحيون أنفسهم من الآثار الإسلامية العلمية في الأندلس؟ و ما أتلفوا الآلاف من الكتب و المؤلفات؟ لماذا هذا التعاطف الخاص مع مكتبة الإسكندرية؟

الواقع أن المسيحيين أنفسهم (كما سنبينه في الصفحات القادمة) قاموا بإبادة هذه المكتبة. و كانت لكبار رجال الدين المسيحي يد في إبادتها. و قد كان ذلك مفخرة في ذلك الزمن. و لكن لما انبثق فجر الحضارة و الثقافة رأت أوربا أن هذا و صمة عار كبيرة على جبينها. ولم ترحيلة للنقل من هذا العار إلا أن تلصق هذه التهمة بأمة أخرى. لما فتح المسلمون مصر و الإسكندرية لم يكن للمكتبة المذكورة أعلاه عين و لا أثر هناك. و بما أن أوربا كلها كانت آنذاك ملاي بالتعصب ضد المسلمين، و لم تكن شهدت بعد أي نهضة علمية، فلم يكلف أحد نفسه بالبحث من صحة هذه الواقعة، وانتشرت في سائر أرجاء أوربا انتشار الحريق في الغابة.و ناحت أوربا وذرفت دموعها على هذه الواقعة بنبوع من التعاطف، كان هذه المكتبة كانت خاصة بها. و هذه هي عقيدة عامة الناس إلى يومنا هذا. و إن شيوع هذه العقيدة جلب فائدة كبيرة لها، لأنه لم يمر بخلد أي إنسان أن يلصق هذه التهمة بالمسيحيين، فإنه من البديهي، أن أمة لا تبيد بأيديها تراثها و لا تتلفها.

و إذا بحثنا عن حقيقة هذه الواقعة المنحولة، التي كانت تدوي بها سماء أوربا كلها في سالف الزمان، نجد أنه لا أساس لها من الصحة و الواقع. و لكن هناك سؤال، هو كيف يمكن أن تبقى

واقعة لا أساس لها من الصحة مدوية الصوت و مسلمة بها في سائر أقطار أوربا لهذه المدة الطويلة؟ إن هذا السؤال صعب فيما يبدو، ولكن الإجابة عنها سهل للغاية. إنه لا داعي للعجب على شيوع هذه الواقعة في عصورها المظلمة، فإنه كانت تشيع فيها أمثال هذه الوقائع الفاقدة الأساس بكثرة في تلك الحقبة، و كانت تتلقى قبولا عاما. و كما قلنا في مستهل هذا المقال، بدأ الباحثون منذ عصر النهضة و الحضارة يبحثون عن هذه الوقائع، و دحضها كبار المصنفين المشهورين و نفوا صحتها. و لكن من العجب أن أناسا ما زالوا يؤمنون بصحتها، مع أنه كان ينبغي أن يبت في زيفها وبطلانها بصورة نهائية.

و لكن هذا الموضوع مازال ساخنا لسببين:

الأول: إن مخلفات الجاهلية لا تتلاشى حتى في زمن الحضارة و النهضة بصورة كاملة، و لا يمكن ذلك أيضا.

و الثاني: إن منهج الدراسات الأوربية عن الوقائع التاريخية لا يوصل إلى حكم نهائي في معظم الأحوال، فإنه بجانب الواقعة الأصلية، و يأخذ في بحث الدراية و القياس، و نتيجة عناية الباحث إلى الأمور الفرعية، وهكذا يتضخم الموضوع، و لا تبلغ الدراسة الأصلية إلى نهايتها. وهذا ما وقع في هذه الواقعة نفسها، كما سنذكره فيما بعد.

لم تزل هذه القضية قيد البحث و الدراسة في أوربا منذ مدة طويلة، و كتب عدة كتاب مقالات مستقلة في هذا الموضوع،كما جاء

ذكره كثيرا في كتب التاريخ التي صنفت عن المسلمين. و يذكر هؤلاء الكتاب، بعد بيان هذه الواقعة، رؤيتهم الخاصة عن هذه القضية، سواء كانت موافقة أو معارضة. إنني أرى من المناسب أن أذكر هنا بالإجمال جميع الكتابات التي اطلعت عليها في هذا الموضوع، فإني أشير إليها بكثرة في هذا المقال.

كان السيد/ غيبون (ت ١٧٩٤) أول من أنكر صحة هذه الواقعة، و علق عليها تعليقا علميا مقتضبا في كتابه تاريخ الإمبراطورية الرومية في الباب الخاص بفتح المسلمين الإسكندرية. و كتب Prof. White ، أستاذ اللغة العربية بجامعة أوكسفورد مقالا أيد فيه غيبون(١). كما كتب في هذا الموضوع كل من واشنطن ارفنغ (٢)، و أرثر جمليين (٣) و السيد / كرتشتون (٤) و دربير (٥) أستاذ كلية نيويورك بالولايات المتحدة. و كذلك نشرت بحوث عديدة حول هذه الواقعة في جريدة Spectator الشهيرة الصادرة في لندن، و كان البعض منها موافقا و الآخر معارضا (٦). و كذلك وجه مسيو سيديو العالم الفرنسي الشهير، الذي كتب تاريخا مفيدا وجامعا للغاية للإسلام، انتقادات تاريخية إلى هذه الواقعة (٧) . كما كتب البروفيسور Desacy،العالم الفرنسي الشهير للغة العربية، بحثا مستفيضا عن هذه الواقعة.(٨)

إن أجمع المقالات و أكثرها تفصيلا ما كان قدمه السيد/ كريل الألماني في مؤتمر المستشرقين. قد أنشي منذ زهاء خمس عشرة سنة مؤتمر في أوربا يستهدف تقصي دراسات مفيدة و نادرة من تاريخ آسيا. عقد هذا المؤتمر اجتماعه الرابع في فلارنس في

سبتمبر عام ١٨٧٨م. و في إحدى جلسات هذا الاجتماع قدم السيد/ كريل، عالم اللغة العربية المعروف في ألمانيا، مقالا حول هذا الموضوع باللغة الألمانية، و نشر هذا المقال مع تقرير المؤتمر.

إن أهم سؤال عن هذه الواقعة ما هو مصدرها الأصلي؟ أهي كتب التاريخ الأوربية أم العربية؟ و رغم أن هذا السؤال مهم جدا و لكن الإجابة عنها لا يتطلب بحثا كثيرا، فإن الذين يكذبون هذه الواقعة و الذين يصدقونها كلهم يردون عليه ردا واحدا. إن عامة المؤرخين الأوربيين، سواء كانوا موافقين أو معارضين، يقرون بأنه لا مصدر عندهم لهذه الواقعة. و هم محتاجون في هذا المقام لكتب التاريخ العربية فحسب. و لكن قبل أن نسوق الدليل على ذلك، نود أن نقول كيف، و بأية وسيلة، عرفت هذه الواقعة في أوربا؟

إن أول من أشاع هذه الواقعة في أوربا هو أبو الفرج، وكان ابن طبيب يهودي يسمى هارونا، ولد أبو الفرج في مدينة ميلتن عام ١٢٢٦م. و بما أن أباه كان قد صبا عن ديانته الأولى و تنصر، فحصل أبو الفرج على التعاليم المسيحية منذ نعومة أظفاره، و نبغ في اللغتين العربية و السريانية، إضافة إلى ضلوعه بالتعاليم المسيحية. و بفضل نبدغه و كفاءته العلمية تم تعيينه أسقفا في جويا، و هو ابن إحدى و عشرين سنة. و وصل بصورة تدريجية إلى رتبة ما فريان، التي لا تبقى فوقها إلا رتبة البطريق فقط. كتب أبو الفرج تاريخا مفصلا جدا باللغة السريانية، وقد اعتمد في كتابته على الكتب السريانية و العربية و الفارسية و الإغريقية. ثم لخص هذا التاريخ باللغة العربية، و سماه " مختصر الدول" . قام الدكتور بوكاك،

أستاذ كلية اوكسفورد، بنشر هذا الكتاب مصحوبا بالترجمة اللاتينية. و توجد نسخ عديدة لهذا التلخيص، و لكن كلها ناقصة، بل إن بعضها يتضمن روايات لا توجد في الكتاب الأصلي باللغة السريانية، ويشك في أن هذه الوقائع المزيدة كان أضافها أبو الفرج نفسه أم إنها من انتحال الذين جاءوا من بعده؟

و هذا هو التلخيص الذي ذكر فيه، لأول مرة، حادث إحراق مكتبة الإسكندرية، و عن طريق ترجمته اللاتينية، شاعت هذه الواقعة في أوربا بأسرها.

يقول السيد/ غيبون في تاريخه : " منذ نشرت الترجمة اللاتينية لتاريخ أبي الفرج تنقل هذه الواقعة مرة بعد أخرى ". كذلك كتب واشنطن ازمنغ و ارثر جلين، و السيد / كرشتن و مصنفون أوربيون غيرهم بصراحة أن هذه الواقعة وصلت إلى أوربا عن طريق أبي الفرج. وقد صادف ذلك زمن الجهالة و العصبية في أوربا فكانت كل واقعة عن المسلمين من هذا النوع، سواء كانت صحيحة أو زائفة، تلقي الرواج بسرعة، و كانت تولد النفرة والكراهية ضدهم. و ملخص القول إن هذه الواقعة شاعت في كل صقع من أصقاع أوربا، و لم تلبث أن أصبحت جزءا للأدب الأوربي. و فيما يلي أنقل ما قاله أبو الفرج عن هذه الواقعة بعضها ونصها(٩):

" في هذا الزمان، اشتهر بين الإسلاميين يحي المعروف عندنا بغرماطيقوس أي الخوي، و كان إسكندريا، يعتقد اعتقاد

النصارى اليعقوبية،ويشيد عقيدة (ساوري). ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر، و سألوه الرجوع عما هو عليه فلم يرجع فأسقطوه من منزلته. و عاش إلى أن فتح عمر وبن العاص مدينة الإسكندرية و دخل على عمرو، وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو، و سمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها آنسة ما هاله ففتن به. و كان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه، و كان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوما : إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية، و ختمت على كل الأشياء الموجودة بها. فإنك به انتفاع فلا أعارضك فيه، و ما لا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو : و ما الذي تحتاج إليه؟ قال : كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب "و كتب إلى عمر عرفه قول يحي، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: و أما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، و إن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية و إحراق في مواقدها. فاستنفدت في ستة أشهر، فاسمع ما جرى و اعجب".

و لم يزل الناس يسلمون بهذه الواقعة كما ذكره أبو الفرج، ولم يدر بخلد أي شخص أن يحققها. و كان المورخ الشهير غيبون، الذي أسس منهجا خاصا في التاريخ، أول من قام بالتحقيق فيها وكتب :" إني أميل إلى إنكار صحة هذه الواقعة و نتيجتها". و قد

ساق غيبون أدلة عديدة على إنكاره، منها أن أبا الفرج ولد بعد خمس مائة سنة من هذه الواقعة، و أن أي مؤرخ، حتى أحد من المؤرخين المسيحيين، لم يذكر هذه الواقعة، فكيف تكون شهادة أبي الفرج جديرة بالقبول و الاعتبار. و بعد ما دحض غيبون صحة هذه الواقعة، هبت أوربا من سباتها، و توفر عدة علماء على درس وتحقيق هذه الواقعة.

و رغم أن الناس انقسموا بعد غيبون إلى فريقين، موافقين ومعارضين، بالنسبة إلى هذه الواقعة. و بما أنه كان مسلما به بصورة عامة أنه لم يضف أي كتاب عن الإسلام في أوربا في القرن الأول الهجري، من هنا نرى أن كتب التاريخ التي كتبت، أو التي لا تزال تكتب حتى الآن، في سير الرسول صلى الله عليه و سلم و الخلفاء الراشدين، كلها تعتمد على مصنفات المسلمين بصورة عامة.فالفريق الذي يميل إلى صحة هذه الواقعة لا بد أن يعتمد على كتب التاريخ العربية بصورة لازمة.

إن السيد/ كرشنن الذي صب جام غضبه على غيبون لنفيه هذه الواقعة، يقول في كتابه تاريخ الإسلام :" لو كانت هذه الواقعة قائمة على رواية هذا الرجل الأجنبي (يريد أبا الفرج) الذي كتب هذه الواقعة بعد ست مائة سنة، لكنا تخرجنا في قبول رواية المؤرخ الأرمني (أبي الفرج) ، لكن هذه الواقعة لا تقوم على روايته فحسب، بل بالعكس ذكرها أيضا المقريزي و عبد اللطيف اللذين صنفا كتبا عن تاريخ مصر القديم". و اعترف بهذا السيد / كريل علنا، و قال :" وقد رما تسعفني ذاكرتي قد ذكرت هذا الواقعة بادي

ذي بدء في تاريخ عبد اللطيف الذي ولد بعد خمس مائة سنة من هذه الواقعة."

و بعد ما تقرر أن مصادر هذا الواقعة، مهما كانت، هي كتب التاريخ العربية، يسهل لنا البت في هذا البحث، لأننا أجدر بأن نطلع على مؤلفات العرب بالنسبة إلى أوربا، فإن صاحب البيت ادري بما فيه!

إن المؤرخين الأوربيين الذين يريدون إثبات هذه الواقعة يذكرون كتب عبد اللطيف البغدادي و المقريزي و حاجي خليفة مصادر لهم، و قالوا : " إن هؤلاء المؤرخين جديرون بالثقة والاعتبار، و لا يمكن أن ترد شهادتهم". قدر ما قمت بالبحث و التقصي وجدت أن أوربا تستند إلى هؤلاء المؤرخين فحسب، غير أن مؤرخا إنجليزيا أشار إلى ابن خلدون أيضا، و قال دون حياء من هذه الكذبة البلقاء : و حكى ابن خلدون هذه الواقعة في معرض بيان ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه." لكن كتاب ابن خلدون كتاب متداول معروف، و لم ترد أية كلمة عن هذه الواقعة في كل ما كتبه ابن خلدون عن عمر رضي الله عنه. و بالجملة فيما نبعد ابن خلدون يبقى هناك ثلاثة مصنفين تقوم على رواياتهم هذه الواقعة. والآن نركز جهودنا على تحقيق هذه الواقعة في ضوء الأصول التاريخية، و سوف نثبت فيه إلى أي مدى لجأ هؤلاء المصنفون الأوربيون إلى الدلس و الخداع في استنادهم إلى هؤلاء المؤرخين.

هناك طريقتان لإثبات الوقائع التاريخية : الرواية و الدراية.

فالرواية هي أن تسند الواقعة إلى الشخص الذي شهدها بنفسه. و قد ألفت جميع كتب التاريخ العربية، التي تعتبر جديرة بالاعتماد، طبقا لهذا الأصل نفسه. و لذا تحكى جميع طرق السند بـ" أخبرنا" و " حدثنا"، و تذكر أسماء الرواة كلهم الذين بواسطتهم يتصل سند الرواية بالشخص الذي شهد بنفسه هذه الواقعة. و قد كان هذا منهج كتابة التاريخ الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري. و رغم أنه قد قل استخدام هذا المنهج في العصور التالية، لكن روعي هذا المنهج في رواية الوقائع التي حدثت في القرون الثلاثة الأولى، أعني أنه لا تؤخذ الوقائع التي حدثت في هذه العصور إلا مدعمة بالسند فقط.

أما المقصود بالدراية فأن ينظر في أية واقعة، هل تتوافق هي مع مقتضيات الطبيعة البشرية، مميزات العصر، و سيرة وأحوال الشخص الذي تعزى إليه تلك الواقعة، و غيرها من القرائن، أم تتعارض معها؟ فإذا لم تصدق الواقعة على هذا المحك فتعود مشكوكة فيها، أعني من المحتمل أن التغيرات التي قد طرأت على تلك الواقعة قد غيرت ملامحها.

و في دراسة هذه الواقعة أيضا سوف نستخدم هذين المبدأين.

و إذا أن هناك فريقين بخصوص هذه الواقعة. الفريق الأول ينفي حدوث هذه الواقعة، و الفريق الثاني يدعى أنها وقعت بدون شك. و من المعلوم أن الفريق الذي يدعي حصول واقعة يتحتم عليه أن يثبت دعواه. فينبغي أن ننظر أولا في تلك الشهادات التي يؤتى

بها تأكيدا لهذه الدعوى. و فيما نعلم (و يمكننا أن ندعى أن شخصا لا يستطيع أن يزيد من ذلك) أن جميع المؤرخين الأوربيين الذين يؤدون إثبات هذه الواقعة ليس لديهم دليل نقلي أكثر من أن عبد اللطيف البغدادي و المقريزي و حاجي خليفة ذكروا هذه الواقعة. هذا أمر يتطلب البحث هل ذكر هؤلاء المؤرخين بصدد هذه الواقعة ما يمكن أن يقوم دليلا لهذه الواقعة؟ و هل في شهاداتهم كفاية لإثبات هذه الواقعة؟

إن مؤرخي أوربا الذين بودهم أن يثبتوا هذه الواقعة قد ذكروا أسماء عبد اللطيف و المقريزي و حاجي خليفة مرة بعد أخرى زورا و بهتانا. أما الذين ينكرون هذه الواقعة فهم لا يعتبرون شهادة هؤلاء المؤرخين جديرة بالاعتبار. و إن هذا المنهج للبحث والدراسة قد أسبل الغطاء على تزوير هؤلاء المؤرخين الأوربيين، فإن البحث قد انحصر في أن عبد اللطيف و غيرهم جديرون بالاعتبار أم لا ؟ مع أنه كان يجب أن ننظر في أن عبد اللطيف وغيرهم قد أتوا بشهادة أم لا؟

فالأمر الأول الذي يتطلب البحث هو ما إذا كانت تصريحات هؤلاء المؤلفين الثلاثة (الذين تذكر أسماءهم بين حين لآخر) ثلاث شهادات مستقلة؟

إن تاريخ المقريزي الذي طبع بمصر بين أيدينا. و في الجزء الأول منه عقد المؤلف فصلا على الصفحة ١٥١ بعنوان "عهود السواري" الذي هو إحدى منارات الإسكندرية الشهيرة. وأورد فيه ما كتبه عبد اللطيف في وصف هذه المنارة بعضها

ونصها. و لما كان عبد اللطيف قد ذكر مكتبة الإسكندرية ضمنا في كتابه، و بما أن المقريزي سرد عبارة عبد اللطيف دون زيادة أونقصان، فقد نقل أيضا الكلمات التي قالها عبد اللطيف عن مكتبة الإسكندرية. و لذا لم يجد العالم الفرنسي المعروف موسيو لانجال مفددحة من الاعتراف بأن رواية المقريزي ليست شهادة مستقلة، بل هي حكاية لما كتبه عبد اللطيف(١٠). و مع أن موسيو لانجال يخالفنا في قضية مكتبة الإسكندرية، لكنه اعترف به على مضض. إن المؤرخين الأوربيين الذين لم يدرسوا كتاب المقريزي الأصلي يذكرون اسمه مرة بعد أخرى إيمانا بالغيب، ولكن بما أن موسيو لانجال كان قد طالع كتاب المقريزي ، فلم يكن له أن ينحو منحى الآخرين، و إن المقريزي قد أوسع في هذا الكتاب نفسه بيانا أحوال فتح الإسكندرية،لكنه لم يكتب، و لو كلمة واحدة ، عن المكتبة، الأمر الذي يدل بصراحة على أنه لا يعتبر هذه الواقعة واقعة تاريخية يؤخذ بها في الاعتبار.

و بعد ما خرج المقريزي، يبقى هناك عبد اللطيف و حاجي خليفة.

و بالرغم من أن معظم المؤرخين الأوربيين ذكروا حاجي خليفة، و لكن أيا منهم لم يذكر عبارته الأصلية. فإنهم لو ذكروها لضعفت دعواهم في أغلب الظن، إننا مدينون للبروفيسور ديساسي (و هو مؤلف فرنسي شهير استنفد جهده في إثبات هذه الواقعة) الذي أزال القناع عن هذا السر، و ذكر نص حاجي خليفة، و هو كما يلي:

"فكانت العرب في صدر الإسلام لا تعتني بشيء من العلوم إلا بلغتها، و معرفة أحكام شريعتها، و صناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم لحاجة الناس طرأ إليها، و ذلك منهم صونتا لقواعد الإسلام و عقائد أهله عن طريق الخلل من علوم الأوائل، قبل الرسوخ و الأحكام. حتى يروى أنهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد."

إن هذا النص لا يذكر مكتبة الإسكندرية البتة، بل يتحدث عن إحراق الكتب بصورة عامة، و هو الأخر مسبوقا بكلمة "يروى"، الأمر الذي يدل على أن هذه الرواية رواية شائعة، كما أن أسلوب النص لا يدل قطعا على أن المؤلف يسلم بهذه الواقعة، بل إن حاجي خليفة يذكر عدم اعتناء المسلمين بالكتب في العصور الأولى للإسلام، و يورد في هذا السياق رواية شائعة بكل ما هي عليه من الوهن و الضعف. و إن مثل ذلك كان يقول شخص :" إن نابليون أراد أن يصبح قائد المسلمين في مصر، و احتال لذلك كل حيلة، حتى يقال إنه أشهر إسلامه في جامع الأزهر، و أدى الصلاة في الجماعة." إن هذا الأسلوب أسلوب عام، يذكر فيه الخطيب أو المؤلف أضعف الروايات و أوهنها، و لا يتحرج منه، و بالجملة إن إسناد دعوى إحراق مكتبة الإسكندرية، و بخاصة إلى حاجي خليفة، جرأة تدعو إلى العجب، و لا يقدم عليها أحد غير المؤرخين الأوربيين.

و الآن تبقى شهادة عبد اللطيف البغدادي فحسب، و الحق إن هذا الرجل هو المعول الأخير للمؤرخين الأوربيين، إن عبد اللطيف

قد صنف كتابا في تاريخ مصر، و سماه " كتاب الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة و الحوادث المعانية بأرض مصر". و انتهى من تأليفه في ١٠/ شعبان ٦٠٣هـ، و ضمنه الوقائع و الأحوال التي شاهدها في مصر. عقد فيه فصلا تحت عنوان " عمود السواري" وذكر فيه أحوالها، و قال إن هذا العمود يحيط به أربع مائة عمود صغير من جوانبه. و في سياق ذلك كتب العبارة التالية:

" و يذكر (١١) إن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذي كان يدرس به الحكمة. و إنه كان دار علم، و فيه خزانة كتب حرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب."

إن كل امرئ يستطيع أن يدرك من خلال العبارة المذكورة أعلاه، ما هي مكانة هذه الواقعة لدى عبد اللطيف؟ فقد ساق عبد اللطيف قوله كله مسبوقا بكلمة " يذكر". و هذا لا يدل، بأية حال، على أنه قد ذكر هذه الواقعة بصفتها واقعة تاريخية، أو أنه كان يسلم بصحتها. يقول السيد/ كريل الألماني، بعد ما نقل قول عبد اللطيف في مقال له : " إنه يبدو أن هذه حكاية عابرة، لم يقصد بها هدف خاص أو التذكير بحادث وقع فعلا، بل إنها ليست أكثر من إعادة قول شائع كان يعيدها سياحو ذلك العصر بين الحين و الحين. و إن هذه الواقعة معارضة للعقل و غير جديرة بالاعتبار، مثل الإشاعات التي تلقت الذيوع عن بيت المقدس بين السياحيين في القرون الوسطى."

و من الطريف، إذ أن عبد اللطيف ذكر قولا شائعا عن المكتبة، فإن جميع الوقائع التي ذكرها في هذا السياق كلها بعيدة عن الصدق و الصواب. فلم يكن يوجد في هذا المكان رواق ارسطاطاليس، كما أنه لم يقم بالتدريس فيه قط. و قد استدل كاتب نشر مقاله في جريدة Spectator اللندنية في هذا الموضوع على خطأ قول عبد اللطيف بطريقة طريفة جدا. فقد قال : "دع عنك إحراق مكتبة الإسكندرية جانبا، إن الوقائع الأخرى التي ذكرها عبد اللطيف بهذا الخصوص لا يصح أي واحد منها على الإطلاق."

ها هي حقيقة الأسناد و الروايات التي أقام عليها المؤرخون الأوربيون بناء أبحاثهم. و إن الدلس الذي تذرع به هؤلاء المؤرخون في هذا البحث لمثير للدهش و العجب لحد كبير. و يستطيع القراء من خلال نصوص عبد اللطيف و أصحابه التي قدمناها بعينها أن يدركوا إن المقريزي لم يذكر بنفسه هذه الواقعة، بل إنما نقل نص عبد اللطيف في وصف " عمود السواري" و الذي يشمل ذكر المكتبة فمنا. أما حاجي خليفة فلم يسم الإسكندرية، غير أنه ذكر المكبتات بصورة عامة، و هو الآخر مسبوقا بكلمة "يذكر" ، الأمر الذي يدل على أن ذلك ليس رواية ثابتة محكمة. لكن المؤرخين الأوربيين ذكروا عبد اللطيف و أصحابه دائما بحيث أنهم ادعوا صدق هذه الواقعة، و كتبوا رسائل مستقلة في هذا الموضوع.

كتب البروفيسور ديساسي في تعليقه :" و من الاعتراضات التي توجه إلى رواية أبى الفرج اعتراض قدمى فيما يظن، و هو أن المؤرخين العرب ساكتون في مثل هذه الواقعة العظيمة." ثم رد

البروفيسور نفسه على هذا الاعتراض قائلا :" لكن قوة هذا الاعتراض يضعف و يتضاءل بعد شهادة عبد اللطيف و المقريزي." و من العجب أن البروفيسور المذكور كتب بعد ذلك:" و رغم أنه يمكنهم أن يقولوا إن رواية المقريزي ليست إلا نقلا لما كتبه عبد اللطيف."

و يقول السيد / كرشنن:" إن هذه الواقعة لا تقوم على السند المذكور أعلاه (أي بيان أبي الفرج)، بل بالعكس، إن المقريزي وعبد اللطيف اللذين صنفا كتبا في تاريخ مصر القديم ذكروا هذه الواقعة."

و يقول البروفيسور وايت بملأ شدنية :" و بالعكس من الدليل السلبي الذي قدمه غيبون، نجرأ على تقديم شهادة شبه لمؤرخين عربيين، و هما مصنفان جديران بالثقة، و لا يمكن أن يوجده اعتراض إلى موثوقيتهما، كما إنهما من الأتباع المتعصبين جدا لدين الإسلام، و أعني بهما عبد اللطيف و المقريزي، اللذين لا يوافقاننا في أثر إحراق المكتبة فحسب، بل يشيران بالضبط إلى المكان الذي كانت فيه المكتبة المذكورة أعلاه."

لأي مدى استخدم البروفيسور وايت دهاءه و كياسته في هذا المقام؟ فقد ذكر عبد اللطيف هذه الواقعة بصفتها إشاعة في معرض بيان " عمود سواري"، لكن البروفيسور قدمها في أسلوب بحيث أن شخصا لم يطلع على حقيقة الأمر يأخذ في الظن أن عبد اللطيف

أثبت هذه الواقعة بصورة مستقلة، ولم يثبت الواقعة فحسب، بل حدد مكان الواقعة وموقعها أيضا.

و رغم أن معظم المؤرخين الأوربيين الذين يسعون لإثبات هذه الواقعة، يستندون إلى هؤلاء المؤرخين الثلاثة، أعني عبد اللطيف و المقريزي و حاجي خليفة، و لذا تركز بحثنا هنا على هؤلاء المؤرخين لا غير. غير أن بعضا منهم قد سبقوا إخوانهم في مجال الدلس و الخداع، و قالوا زورا و بهتانا إن هناك شهادات عديدة غيرها تؤيد حصول هذه الواقعة. يقول السيد / كرشنن على هامش كتابه : " إن بيرن ديساسي،الذي كتب تعليقا موسعا على ترجمة كتاب عبد اللطيف (بيان مصر ص : ٢٤٠) قد جمع شهادات مختلفة من كتب المؤلفين العرب المتواجدة في مكتبة باريس الملكية. و في ضوء هذه الشهادات تبدو رواية أبي الفرج جديرة بالأخذ والاعتبار ،لكن غيبون المتغطرس لم يكن اطلع على هذه المؤلفات."

إن أمرا لم يطلع على جلية الأمر، و بخاصة ذلك الذي يسرع إلى تصديق كل ما يقوله الأوربيين، سوف نخدعه هذه العبارة لا محالة، و يأخذ يستيقن أنه ستكون هناك مواد علمية وفيرة حول هذه الواقعة في مكتبة باريس العظيمة، و إلا لم يكن تشتهر مثل هذه الواقعة الكاذبة في أوربا بأسرها.

و لكن ينبغي ألا يرعب اسم باريس الفخم قراءنا. إن تعليقات ديساسي و الكتب التي أشار إليها موجودة بين يدي. و لا شك في أن ديساسي استنفد جهده كله لإثبات هذه الواقعة، ولكن مما يؤسف له أن

القوة التي توجد في طبيعته لا توجد في الأدلة التي قدمها. و فيما يلي ننقل ما كتبه ديساسي بصدد هذه الواقعة:

" إن ما كتبه أبو الفرج في كتابه " مختصر الدول" عن إحراق مكتبة الإسكندرية و إتلافها بأمر من عمر (رضي الله عنه) قد شك فيه عديد من المؤلفين الكبار. و إن كل ما كتب عن هذه الواقعة يحتاج إلى بحث فائض،ليتم تقييم قيمتها العلمية تقييما صحيحا.

و إن الأدلة التي اثير على أساسها الشكوك يمكن أن تتواجد في الدراسة الألمانية التي قام بنشرها Rainhard Meh من Gottlngre عام ١٧٩٢م، و في التعليقات الخاصة بمكتبات الإسكندرية العتيقة، التي دونهاM. de. Saire Croix في ميغازين إنسايكلوبيديا،السنة الخامسة على الصفحة ٤٣٣. و إن موسيو لانجال (Langles) و وايت (White)يؤيدان الرأي العام الشائع، غير أنهما لا يقبلان رواية أبي الفرج المبالغ فيها.

و من بين الاعتراضات التي وجهت إلى رواية أبي الفرج اعتراض قوي، هو أن المؤرخين العرب يعتصمون بالسكوت في مثل هذه الواقعة العظيمة، لكن قوة هذا الاعتراض تضعف في ضوء شهادات عبد اللطيف و المقريزي، بيد أنه يمكن أن يقال إن رواية المقريزي في الظاهر، كما أشار إليه ووسيو لانجال، نقل و إعادة لرواية عبد اللطيف الخاصة بهذه الواقعة.

و إن هذه التعليقات التي سوف أذكرها بعد، لا أريد أن أبارز بسببها مؤلفا عالما (يريد موسيو لانجال) أبجله و أحبه من أعماق قلبي. لكنني عثرت على بعض الشهادات الجديدة الخطيرة، و إنني أؤمن بأن هذه الواقعة حصلت كما ذكرها أبو الفرج. ورغم أن فيما تفاصيل لا تستطيع أن تصمد في مواجهة النقد. لكنه من الحق أن هذه الواقعة تتأسس على واقع تاريخي، و هو أن العرب لما فتحوا هذه المدينة أمر عمرو بن العاص، بأمر من عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن توضع خزينة كانت توجد في الإسكندرية، و تتضمن كتبا كثيرة، في النار."

ثم نقل البروفيسور ديساسي نصد ما لحاجي خليفة و المقدمة لابن خلدون، و استدل بها على واقعة إحراق مكتبة الإسكندرية.

و كم كانت مشتاقا لأن اطلع على الشهادات الخاصة الجديدة التي زعم البروفيسور العثور عليها، ولكن من الأسف إنها لم تكن شيئا. و عجبا أن البروفيسور ألقب نفسه في فحص مكتبة مثل مكتبة باريس العظيمة، و لم يظفر إلا بشهادتين فقط. الأولى عبارة لحاجي خليفة ذكرناها قبل، و الأخرى عبارة قصيرة من المقدمة لابن خلدون ورد فيها، ضمنا و إجمالا، في إحدى المناسبات ذكر مكتبة إيران. و من عجيب المنطق أن يقوم امرؤ بدعوى إحراق مكتبة في إسكندرية، ثم يستدل عليها بحادث مكتبة توجد في إيران. ورغم أن ما قاله ابن خلدون عن مكتبة إيران خاطئ على الإطلاق، ويعارض جميع كتب التاريخ الصحيحة الجديرة بالاعتماد، لكننا لا نبحث عنه

في هذا المقام، لأن مقالنا هذا يخص بمكتبة الإسكندرية لا بمكتبة إيران.

وقد يقال إن البروفيسور ديساسي قدم قول ابن خلدون كشهادة مؤيدة، لكن ذلك أيضا لا يفي بهذا الغرض، فإنه دل على شئ فإنما يدل على أن إحراق مكتبة الإسكندرية واقعة لا أساس (من الصحة على الإطلاق ، و إلا كان أي مؤرخ عربي ذكر واقعة الإسكندرية بنفس الأسلوب الذي ذكر به ابن خلدون واقعة مكتبة إيران، مع أن أيا من الآلاف المؤلفة من كتب التاريخ العربية لا تذكر هذه الواقعة.

إن نص عبد اللطيف و المقريزي الأصلي الذي ذكرناه قبل لا يمكن أن يكون دليلا، بأية حال، على حصول هذه الواقعة. و من الطريف أن أبا الفرج نفسه لم يذكر هذه الواقعة بحيث يثبت منه أنه كان يسلم بصحة هذه الواقعة، و كان يعتقد بصدقها. إن تاريخ أبي الفرج الأصلي الذي كتبه باللغة السريانية أصلا، و الذي ذكر فيه فتح الإسكندرية مفصلا، لا يتضمن هذه الواقعة. غير أن تلخيص هذا التاريخ الذي أنجزه باللغة العربية يحوي هذه الواقعة كما ذكرنا ها قبل، لكنا لا نطمئن كثيرا لهذا التلخيص، هل الإضافات التي تمت على الكتاب الأصلي إنما هي من صنيع أبي الفرج نفسه أو قام بها رجل أخر غيره؟ يقول السيد/ كريل الألماني عن هذا التلخيص : إنه تيقن أشياء لا توجد في الأصل السريالي، و لا يعلم قطعا أن هذه الإضافات زيدت إلى هذا الكتاب في الآونة المتأخرة أو زادها أبو الفرج نفسه، فإن جميع النسخ المتواجدة لهذه التلخيص ناقصة، و إن

واقعة إحراق مكتبة الإسكندرية الموجودة في التلخيص العربي لا توجد في الأصل السرياني. و إن ظن انتحال هذه العبارة يقوي مزيدا بأن البروفيسور بوكاك هو الذي توفر على تحقيق و نشر التلخيص العربي، و كانت له يد ضاع في اختلاف الوقائع ضد المسلمين."

إن جميع دراستنا حتى الآن كانت موجهة إلى ما إذا كان عبد اللطيف و حاجي خليفة أتوا بشهادة أم لم يأتوا بخصوص هذه الواقعة؟ و لكنا لو سلمنا، متنازلين، بأن هؤلاء المؤلفين اعترفوا بصحة حصول هذه الواقعة، فإذن ينشأ هناك بحث أخر، و هو أن شهادة هؤلاء المؤلفين بصدد هذه الواقعة جديرة بالاعتداد أم لا؟

إن عبد اللطيف البغدادي من مواليد عام ٥٥٧هـ، أما حاجي خليفة فلم تمض على وفاته أكثر من قرنين. فمن يستطيع أن يقول إن الواقعة التي حصلت في مستهل القرن الأول الهجري تؤخذ فيها شهادة أولئك الذين ولدوا بعدها بخمسة قرون، و لم يذكروا سندا لشهادتهم، كما لم يشيروا إلى أي مصدر لهم.

و في جانب أخر، ينبغي أن ننظر في مكانة هؤلاء المؤلفين في فن التاريخ. فإن المؤلفين الأوربيين قد احتالوا هنا أيضا، فهم يكيلون حاجي خليفة و عبد اللطيف الثناء جزافا بكلمات فخمة طنانة، ويقولون إن أقوالهم، نظرا إلى عظمتهم و مكانتهم، جديرة بالقبول لا محالة. و كشفا عن خداع و تزوير هؤلاء المؤلفين الأوربيين، يكفي أن يوجه إليهم سؤال وجيز. إننا أيضا نسلم بأن عبد اللطيف و حاجي خليفة كانا مؤلفين عالي الكتب، لكن السؤال في أي فن كان نبدعهم و تخصصهم؟ لا شك في أن عبد اللطيف كان طبيبا كبيرا ، و توجد

له تـأليف عديدة فـي الطـب، و ذكـر ابـن أبـي أصبعـة ترجمـة بتفصيـل فـي "طبقـات الأطبـاء"، الأمـر الـذي يـدل علـى علـو كعبـه و وفـرة معلوماتـه في فـن الطـب. و لكـن هـل وضعـه أحـد فـي عـداد المؤرخيـن؟ و هـل ذكـر هو فن التـاريخ بأيـة مناسبة فـي حياتـه؟ إذا لـم يكـن الأمـر كذلـك، فمـا هـو غنـاء عظمتـه و علـو شـأنه فـي الوقـائع التاريخيـة؟ فلـو كتبـت واقعـة تاريخيـة استـنادا إلـى الفـارابي و ابـن سـينا فـإلى أي مـدى تكـون جديـرة بـالقبول؟

و كذلـك لا مـراء فـي أن حـاجي خليفـة صنـف كتابـا مفيـدا جـدا مثـل " كشـف الظنـون" لكـن ذلـك ليس كتابـا فـي فـن التـاريخ. بـل هـو فـهرس للمصنفـات الإسـلامية، و لا نعلـم مـأثره سـواه لحـاجي خليفـة. وليس له كتاب فـي فن التـاريخ، كمـا لـم يذكـره أحـد فـي عـداد المؤرخيـن.

و الحـق إنـه أمـر بـاعث للعـار لمعارضينـا أنـهم لـم يعـثروا علـى دليـل واحـد لواقعـة عظيمـة دامـت لمـدة سـتة أشـهر فيمـا زعمـوا، مـن بيـن آلاف مؤلفـة مـن المصنفـات الإسـلامية و بغايـة مـن اليـأس و العجـز احتجـوا بطبيـب و مصنـف فـهرس للكتـب.

إن كـل دراسـتنا لحـد الآن كـانت مـن ناحيـة أننـا اعتبرنـا المعـارضين مدعيـن، فإنـه نظـرا إلـى مبـادئ المنـاظرة هـم الذيـن كـانوا ادعـوا إتـلاف المكتبـة علـى أيـدي المسـلمين. و لكننـا نخطـو الآن إلـى الأمـام، و ندعـي إن هـذه المكتبـة لـم يتـم إحراقـها بـأمر مـن عمـر رضـي الله عنـه، و لا أتلفـها المسـلمون البتـة. لكـن ينبغـي أن يـدرك أولا أن الدعـوى التـي تقـام بالصيغـة السـلبية مـا هـي طريـق الاسـتدلال عليـها مـن

ناحيتي الرواية و الدراية؟ فمثلا إذا أقيمت الدعوى أن حادثا فلانيا لم يحصل في زمن كذا كذا، فيكفي دليلا عليها، من ناحية الرواية، إن جميع مصادر العلم و المعرفة الخاصة بذلك الزمن لا تقول شيئا بصدد ذلك الحادث. هذا من ناحية الرواية. أما من ناحية الدراية فهي أن تنفي القرائن و الشهادات الأخرى حصول هذا الحادث في ذلك الزمن. و بناء على طريق الاستدلال هذه، نحن ندعي أن مكتبة الإسكندرية لم تتلف بأيدي المسلمين بصورة أكيدة.

إن عصر التأليف في الإسلام يستهل من عام ١٤٠هـ، و في هذا الزمن بالذات صنف محمد بن إسحاق أول كتاب في التاريخ حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تتابعت كتابة التاريخ العام حول فتوحات الخلفاء الراشدين و تفاصيل أحداثها ووقائعها. و فيما يلي نحن نذكر المصنفات التي أنجزت في هذا العصر، و التي هي متواجدة في أصلها أو توجد آثارها:

فتوح البلدان للبلاذري:

عاش البلاذري في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله، و ذكر في تاريخه كل واقعة بالأسناد المتصلة.

تاريخ اليعقوبي:

أي تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي. و هو مؤلف قديم جدا، و كان من معاصري رجال بلاط مامون الرشيد. و كتب هذا التاريخ حتى عام ٢٥٩هـ، و كان

في الأغلب علي قيد الحياة في هذه السنة. يتكون كتابه من جزئين، ونشر من ليدن عام ١٨٨٣م.

تاريخ أبي حنيفة الدنيوري:

نشر من ليدن

التاريخ الكبير لأبي جعفر جرير الطبري:

و رغم أن هذا التاريخ متأخر لحد ما من كتب التاريخ المذكورة أعلاه، فإنه مؤلفه توفي عام ٣١٠هـ الموافق لعام ٩٢٢م، لكنه دون في تاريخه جميع الوقائع بالأسناد المتصلة، كما ذكر أسماء الرواة بأجمعهم في الروايات كلها. إن هذا الكتاب مخزن جميع الروايات التي تتواجد الآن أو كانت موجودة في الماضي بخصوص التاريخ الإسلامي. و من هذا المنطلق صحيح أن يقال ٍإن الوقائع الخاصة بالقرون الثلاثة الأولى التي لا يتضمنها هذا الكتاب لا تدخل في التاريخ. و هو كتاب ضخم جدا. و قد طبع منه حتى الآن اثنا عشر جزءا من هولندا، و لم تزل عدة أجزاء منها مطمورة بعد.

إن تاريخي ابن الأثير و ابن خلدون، اللذين يخطيان بدرجة عالية من الموثوقية، إنما هما تلخيص تاريخ الطبري نفسه. و قد سلم به هؤلاء المؤرخون أنفسهم. و إضافة إلى هذه الكتب التاريخية هناك كتب أخرى تبحث عن التاريخ الإسلامي، و لكنها هي الأخرى تعتمد على الكتب العديدة التي ذكرناها قبل فيما يتعلق بالوقائع التاريخية، وإن دراسة هذه الكتب تدل على ذلك بصراحة.

وبالإضافة إلى هذه الكتب، هناك كتب أخرى صنفت في أحوال مصر و الإسكندرية بوجه خاص، و قد عثرنا منها حتى الآن على المصنفات التالية:

خطط مصر لأبي عمر الكندي (ت ٢٤٦هـ)، و كشف الممالك لابن شاهين (ت ٣٨٥هـ)، و تاريخ مصر لعبد الرحمن الصوفي (ت ٣٤٧هـ) وتاريخ مصر لمحمد بن بركات النحوي (ت ٥٢٠هـ) و تاريخ مصر لمحمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ) و تاريخ مصر للقفطي (ت ٦٤٦)، و تاريخ مصر لقطب الدين الجلي (ت ٤٣٥هـ) و تاريخ مصر ليحيى الجلي (ت ٦٤٠هـ)، و الانتصار لابن دقماق (ت ٨٠٩هـ)، و عقود الجواهر، و نزهة الناظرين، والدرة المضينة، و أشرف الطرف، و النزهة السنية، و تفريح الكربة، وفرائد السلوك، و بدائع الزهور، و تحفة الكرام بأخبار الأهرام، و أعلام بمن ولي مصر في الإسلام، و تاريخ مصر لإبراهيم بن وصف، و جواهر البحور، و مختار للقضاعي ، و النقط المعجم، و الروضة البهية، و المواعظ و الاعتبار للمقريزي، و جواهر الألفاظ، و اتعاظ الحنفاء، و النجوم الزاهرة، و تاريخ مصر لابن عبد الحكم.

و مع أن جميع هذه الكتب لا توجد اليوم، لكن صنفت في العصور التالية كتب اشتملت على روايات الكتب القديمة بأجمعها، مثل كتاب "حسن المحاضرة" للسيوطي. فقد كتب السيوطي نفسه في مقدمة هذا الكتاب أنه قرأ في ثمانية و عشرين كتابا، و أعد فيها هذا الكتاب. و من أبسط الكتب و أكثرها تفصيلا في هذا الباب هو كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار " للمقريزي،الذي استقص فيه حتى كل واقعة جزئية تخص بهرو الإسكندرية.

إن جميع الكتب الموثوقة التي ذكرناها قبل، و التي لا مصدر سواها للإطلاع على أحوال هذا العصر، لا يمس أي كتاب منها موضوع هذه الواقعة التي نحن بدراستها الآن. مع أن هذه الكتب، و بخاصة فتوح البلدان للبلاذري، وحسن المحاضرة للسيوطي، و الخطط و الآثار للمقريزي تبحث عن فتح الإسكندرية بإسهاب، و مع ذلك إنها لم تذكر حتى هذه المكتبة ذكرا عابرا.

هذه هي الكتب التي كان من المتوقع أن تتضمن هذه الواقعة (إذا كانت حصلت فعلا) بصورة متميزة، لكن المصنفات التي يتوقع أن تشير إلى هذه الواقعة عرضا، إنها هي الأخرى لا تخبر شيئا عن هذه الواقعة المختلفة، مثل الكتب التي صنفت في تراجم الفلاسفة والأطباء، و التي تتضمن ترجمة يحي النحوي نفسه، و قال إن يحي طلب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه إعطاءه المكتبة، فرد عليه عمرو بأمر إحراق المكتبة، و ذلك بإيعاز من عمر رضي الله تعالى عنه. كان يحيى طبيبا و فيلسوفا، و نقلت جميع مصنفاته إلى اللغة العربية. و إن كتب التاريخ العربية التي صنفت في تراجم الفلاسفة و الأطباء تذكر ترجمة يحيى النحوي بإسهاب. فقد ذكره ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء و ابن النديم في كتاب الفهرست وذكرا أحوال حياته،وعددا مصنفاته، و كتبا أيضا أنه حضر في خدمة عمرو بن العاص، فأنزل نزلا كريما. يقول ابن النديم:

" و كما فتحت مصر على يدي عمرو بن العاص دخل إليه، و أكرمه، و رأى له موضعا."

و زعم وجود هذا التاريخ، لم يرد ذكر المكتبة بأي مكان، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أنه لا أساس لهذه الواقعة من الصحة و الواقع.

وإضافة إلى هذه المصنفات، كان من المتوقع أن تذكر هذه الواقعة عرضا في كتب الجغرافيا و الرحلات و السير الذاتية، لكن لا توجد عين و لا أثر لها في هذه الكتب أيضا. حق إننا لا نكون مجانبين للصدق إذا ادعينا أن المصنفات الإسلامية بأسرها، ما خلا عبارة عبد اللطيف التي كشفنا عن حقيقتها في الصفحات الماضية، تخلو من ذكر هذه الواقعة. و أي دليل أكبر من هذا يوجد على كذب هذه الواقعة؟

وفوق ذلك إن كتب التاريخ القديمة التي صنفها المسيحيون أنفسهم لا تتضمن هذه الواقعة. فقد كتب يورتيكس (ت ٩٤٠م)، الذي كان يشغل منصب بطريرك الإسكندرية في القرن العاشر الميلادي، كتابا ضمنه تفاصيل فتح الإسكندرية. كما صنف المسكين، الذي عاش بعد ثلاثة قرون من هذه الواقعة، أي قبل أبي الفرج بقرنين، كتابه عن تاريخ مصر حال قيامه فيها، و كتب فيه أحوال فتح الإسكندرية بإسهاب. ولكن لم ترد حتى كلمة واحدة عن هذه الواقعة المختلفة في هذين الكتابين. كان هذان المصنفان من المسيحيين المتعصبين، و لا يمكن أن يظن عنهما الانحياز تجاه المسلمين، و إلى ذلك، كانا باحثين و من محبي العلم، و إن ضياع مثل هذا التراث العلمي الكبير لم يكن ليكون أثرا تافها في نظرتهم. و إن إقامتهم في مصر و ولوعهم الطبيعي يكفلان لهما تكاثر قنوات العلم و المعرفة

لهم عن مصر و أحوالها. و بالرغم من ذلك كله، إن عدم قيام هذين المؤرخين بكتابة كلمة واحدة عن هذه الواقعة يدل دلالة واضحة على أنه لا أساس لها قطعا. و قد استدل بهذا المصنفون من المؤلفين الأوربيين، أمثال غيبون وكريل، بوجه عام على بطلان هذه الواقعة.

و هناك دليل آخر أقوى من هذا على كذب هذه الواقعة، وهو أن المكتبة التي يعزون إحراقها إلى المسلمين قد كانت ضاعت قبل الإسلام بزمن غير قليل. و جلية الأمر هي أن هذه المكتبة كان أنشأها ملوك مصر، و كانوا من عبدة الأصنام، فلما استبدت المسيحية بالأمر في مصر، أخذ الملوك المسيحيون في إتلاف هذه الكتب بدافع من العصبية الدينية، و زادت الأرض بلة و الطنبور غنة بحث القساوسة على ذلك.

ولذا لم يجد كبار المصنفين و المؤرخين الأوربيين مندرجة من الاعتراف بأن هذه المكتبة كان تم إتلافها قبل الإسلام بزمن طويل. ذات مرة ألقى موسيو رينان،العالم الفرنسي الشهير، محاضرة في جامعة باريس تحت عنوان "الإسلام و العلم" و قد طبعت هذه المحاضرة في كتيب في باريس عام ١٨٨٣م. و زعم أن هذه المحاضرة مليئة بالعصبية ضد المسلمين، حيث أثبت فيها بكل قوة أنه لا يمكن اجتماع العلم مع الإسلام، مع ذلك قال هذا المتعصب عن مكتبة الإسكندرية في هذه المحاضرة:

" و مع أنه يقال إن عمرو بن العاص (رضي الله تعالى عنه) أمر بإبادة مكتبة الإسكندرية، لكن ليس ذلك حقا، فإن هذه المكتبة كان تم إبادتها قبل هذا الزمن."

قد ذكر السيد/ كريل تفاصيل هذه المكتبة الملكية في مقاله ، و أبان بإسهاب ضياعها عبر العصور. إن ضياع هذه المكتبة أمر واقع لدرجة أنه (لا مناص حتى للمؤرخين الأوربيين من الاعتراف بها)، ولم يستطع أن ينكرها حتى أولئك المؤرخون الأوربيون الذين يريدون أن يثبتوا واقعة إحراق مكتبة الإسكندرية. كتب السيد/ دربير في كتابه إن يوليو قيصر كان قد أحرق أكثر من نصف هذه المكتبة، أما الباقي منها فلم يكتف بطارقة الإسكندرية بالسماح لإتلافها، بل أشرفوا بأنفسهم على إتلاف و تشتيت المتبقية منها، و يقول دسيس بصراحة:

"و بعد عشرين سنة من هذه الواقعة ، كان ثيو فيلس حصل على إذن مكتوب من الملك ثيو دوسس لإتلاف هذه المكتبة، وقد رأيت دواليها و رفوفها خالية."

و بما أن ضياع هذه المكتبة كان أمرا واقعا، فلجأ المعارضون إلى خداع آخر، و ادعوا أن المكتبة التي كان أتلفها عمرو بن العاص رضي الله عنه لم تكن تلك المكتبة الملكية، بل كانت مكتبة السيرابيوم و أشار كاتب في جريدة Spectator ، تأييدا لأبي الفرج، إلى مكتبة السيرا بيوم نفسها. لكن هذا من باب توجيه القول بما لا يرضى به قائله، فإن أبا الفرج حينما كتب في تاريخه أن يحيى النحوي طلب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه الكتب، فإنه كتب بالمناسبة بكلمات صريحة" كتب الحكمة التي في خزائن

الملوكية." و لو سلمنا - على سبيل الافتراض - بأن هذه الواقعة تخص بمكتبة السيرابيوم، فإنه رغم ذلك يستعصي على معارضينا أن يثبتوا وجود هذه المكتبة إبان فتح الإسكندرية. و بالعكس إنه يثبت أن هذه المكتبة أيضا كانت أبيدت جزءا أو كلا قبل ذلك.

يقول السيد / كريل إن السيرابيوم و مكتبتها لا تزالان في ظلام حتى الآن،فإنه من المعلوم أن مبد السيرا بيوم الذي كانت تتعلق به هذه المكتبة كان تم تحويلها إلى كنيسة عام ٣٨٩، و ذلك في زمن ثيودوسيس. و لكن هل كانت هذه المكتبة موجودة حال تحويل المعبد إلى الكنيسة أم كانت ضاعت قبل، أو كانت كتبها نقلت إلى القسطنطينية، أقرب إلى القياس، فإن المكتبة التي كان أنشأها ثيودوسيوس الثاني في القسطنطينية في القرن الخامس الميلادي، كانت تتكون من كتب مصر و آسيا الصغرى.

وتسليما بأن المكتبة التي نحن بدراستها كانت في السيرابيوم، قال موسيو سرنيو الفرنسي : إن أي مورخ معاصر لم يذكر هذه الواقعة (إحراق عمرو المكتبة)، و لو صحت، فإنها تتعلق بكتب عديدة فحسب، فإن بعض أجزاء هذه المكتبة كان تم إتلافها على زمن قيصر، و مرة أخرى على عهد ثيودوسيس."

و الآن نريد أن نزن صحة هذه الواقعة و كذبها في ميزان الدراية. إن الخصائص التي أحاط بها أبو الفرج (الذي هو أول ناحل لهذه الواقعة المختلفة) هذه الواقعة باطلة و غير معقولة لدرجة أن جميع المؤرخين الأوربيين بعامة، سواء كانوا من المسلمين بها

أو المنكرين لها، يعتبرونها رواية فاقدة الأساس. فالبروفيسور ديساسي،الذي استنفد جهده في إثبات هذه الواقعة، يعترف بأن التفاصيل التي أوردها أبو الفرج غير صحيحة، كما أطلق ذلك سخرية كتاب دائرة المعارف البريطانية أيضا. وهل توزيع الكتب على الحمامات (البالغ عددها أربعة آلاف حمام) و إحراق الكتب لمدة ستة أشهر، و حلولها محل الوقود، يكون شيئا غير قصة منحولة؟ و مع أن أبا الفرج لم يبين عدد الحمامات المتواجدة في مصر، و لكنه معلوم قطعا أنها كانت أربعة آلاف حمام. فينبغي أن يعلم أن الحمامات المصرية و عدد الأربعة آلاف شيئان متلازمان، كما ارتأى ذلك معظم المؤرخين الأوربيين. فلو حسبنا الآن ماذا عسى أن يكون عدد الكتب الموزعة على الحمامات فنتوصل إلى أنه من العسير أن يوزع كتاب واحد نمل حمام واحد يوميا، بل إن نصيب كل حمام لا يكون أكثر من نصف الكتاب. فإما كان استعمال الحمامات قليلا جدا، حيث أن كتابا واحدا، بل إن نصف الكتاب، كان يكفي ليوم واحد، أو كانت هذه الكتب ضخمة حيث أن نصف الكتاب كان يوفر وقود يوم بأكمله.

و من المعروف أن الكتب في هذه العصور كانت تكتب على الجلود، و هي لا تغني غناء الوقود، فاستعمال الكتب لهذا الغرض، يبدو اكثر صخانة و حمقا. يقول دربير:" إنني على ثقة من أن أصحاب الحمامات في الإسكندرية ما داموا يجدون وقود آخر إنهم لم يكونوا أحرقوا الكاغذات المصنوعة من الجلد (و التي كانت كتبت

عليها هذه الكتب)، و إن معظم أجزاء هذه الكتب كانت متلونة من كاغذات جلدية نفسها."

إن الناحلين لهذه القصة نحلوها تشويها لسمعة المسلمين، لكنه لم يمر نجلدهم أن هذه القصة تقسيم المسيحيين أنفسهم في قفص الاتهام. فإنه - افتراضا للمستحيل - إن كان عمرو بن العاص أرسل هذه الكتب إلى الحمامات، لكن أصحابها ببكرة أبيهم كانوا يدينون بالنصرانية، و كان يمكنهم صيانة هذه الكتب و استعمال وقود غيرها. و لم يمكث عمرو بن العاص بعدها لستة أشهر في الإسكندرية حتى تفرق قلوبهم من محاسبته.

و مع أن هذه القياسات العابرة السهلة الفهم تكفي لدحض هذه الواقعة المنحولة،لكن إمعان النظر مزيدا يكشف عن حقيقتها كشفا تاما. إذا نظرنا في هذه الواقعة بعين الدراية فيجب علينا ملاحظة الأمور التالية: كيف، و على أية شروط تم الاستيلاء على الإسكندرية؟ و كيف كانت المعاملة مع البلدان التي فتحت مثل فتح الإسكندرية؟ و ماذا كان موقف عمر رضي الله تعالى عنه بوجه عام في مثل هذه المناسبات؟ و كيف كان اتجاه عمرو بن العاص رضي الله عنه الشخصي و مذاقه الطبيعي؟ و هل توجد آثار تراث الإسكندرية العلمي في الإسلام أم لا؟ إن جواب كل سؤال من هذه الأسئلة يكفي في قليل أو كثير، يكفي للبث في هذا البحث.

إن جميع كتب التاريخ الموثوقة تنص على أن الإسكندرية بعد فتحها دخلت في عهد الذمة، أعني أصبحت رعاياها أهل ذمة

وأمان. إن كتاب البلدان للبلاذري، و هو كتاب قديم جدا، و الذي يردي فيه مؤلفة كل وافقة بسنده، جاء فيه:

" ثم إن عمرو افتتحها بالسيف، و غنم ما فيها، و أبقى أهلها و لم تقتل، ولم يسب، و جعلهم ذمة."

ووردت هذه الكلمات نفسها في تاريخي ابن الأثير و ابن خلدون أيضا.

و من أوائل الحقوق التي أعطاها الإسلام أهل الذمة هي أن يؤمنوا على أرواحهم و أموالهم العينية و بضائعهم و بهائهم ومبايينهم و ما إليها. إن الاتفاقيات التي أنجزت في شكل كتابي، مع أهل الذمة في فتوحات الشام و فارس كلها توجد في كتب التاريخ، و في كل منها روعيت هذه الحقوق بوجه خاص. و فيما يلي كلمات اتفاقية مصر بنفسها:

" هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم و دمهم و أموالهم و صناعهم و مدهم و عددهم."

و يتضمن كتاب معجم البلدان رواية صحيحة أخرى جاءت فيها كلمات أو مضمون الاتفاقية كما يلي :

" و إن لهم أرضهم و أموالهم لا يتعرضون في شئ منها."

لا يمكنني أن أطيل القول في سلوك عمر رضي الله عنه مع أهل الذمة، لكنه من الضروري أن نقول هنا بالإجمال إنه ساوى دائما بين دماء و أموال أهل الذمة و الإسلام. فحينما قتل رجل مسلم

ذميا في الحيرة أمر عمر رضي الله عنه بقتل المسلم قصاصا عنه، وتم تنفيذ أمره هذا على رؤوس الأشهاد، كما أجرى الرواتب والمعاشات لفقراء الذميين من بيت المال، و أبقى على الكنائس والمعابد بأسرها في فتوحات الشام. و أي شئ يكون أعظم من الوصايا الثلاث التي أوصا بها و هو على فراش الموت:

" أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم، و أن يقاتل من ورائهم، و ألا تكلفوا فوق طاقتهم."

إن مؤلفي أوربا المتعصبين الذين يشكون من عمر رضي الله عنه شدته و صلابته، لا يسعهم أن ينكروا أن كل ما كتبه قلمه أو نطق به لسانه امتثل به كاملا دون زيادة أو نقصان. و إن المؤرخين المسيحيين، مهما أوغلوا في تعصبهم، لا يستطيعون أن يقدموا مثالا واحدا من حياته كلها لم يوافق فيه عمله قوله.

فلما سلم به أن سكان الإسكندرية جعلوا أهل ذمة و أمان، وإن معاملة عمر رضي الله عنه مع أهل الذمة معلومة تماما، إذا كيف يمكن إتلاف تذكار كبير (أي المكتبة) لأهل الإسكندرية بمثل هذه الضراوة و قساوة القلب؟ و هل كانت هذه المكتبة أكثر إثارة لنفرة المسلمين و كراهيتهم من المعابد و الكنائس؟ و لما تركت مئات و آلاف من المعابد و الكنائس على حلها في طول و عرض البلدان التي فتحها المسلمون، و كتبت هذه الكلمات الخاصة للحفاظ عليها في جميع المراسم:

" لا يهدم لهم بيعة و لا كنيسة داخل المدينة و خارجها."

فكيف يعقل هذا الموقف المتعسف الغاشم في شأن المكتبة؟

و الحق أن أبا الفرج (الذي نحل هذه الواقعة لم يكن يدري كيف يكذب؟ فلو قص هذه القصة عن زمن الحصار و الفتح بالذات لكانت معقولة، فإن الهجوم و عاطفة المقاومة لا يحفلان بأي شئ؟ لكن بعد أن سلم بأن المدينة أعطيت الأمان، جعل أهلها أهل ذمة، وفرت حمى الحرب و العراك، إذا لا يمكن أن يحدث هذا العمل الغاشم إلا في مخيلة أبي الفرج فحسب. و لذا رد البروفيسور سيديو رواية أبي الفرج قائلا:

" فيما يسلم بأن المدينة لم تنهب في الأيام الأولى من فتحها، فمن العسير أن يصدق أنه أمر بهذا العمل الوحشي في وقت عثرت فيه دماء الفاتحين."

و إن أبا الفرج نفسه اعترف بكفاءة عمرو بن العاص رضي الله عنه و ذوقه العلمي، فقد كتب في ترجمة يحي النحوي:

" دخل على عمرو، وقد عرف موضعه من العلوم، فأكرمه عمرو، و سمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بما أنسة ما هاله. و كان عمرو عاقلا، حسن الاستماع، صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفاته."

فلننظر أن هذا الإنسان الفاضل المحب للعلم الذي، رغم حماسة الدينية، اتخذ عالما مسيحيا صاحبه و رفيقه، و إلى ذلك كان مولعا بالأبحاث العلمية بل الفلسفية، كيف يتصور أنه يستمر في

إتلاف المكتبة لمدة طويلة، الأمر الذي لا يقدم عليه شخص جاهل، مهما أوغل في جهله و غباوته. لنفترض أنه لم يكن حرا في تصرفاته، و لكن كان يمكنه أن يكتب توصية عن هذه المكتبة في الكتاب الذي كان يبعث به إلى عمر رضي الله عنه. و إن عمرو طالما استخرج منه الإذن استخراجا في أمور شتى، حتى إن عمر رضي الله عنه لم يكن راضيا بشن الهجوم على مصر و الإسكندرية في أية حال، لكن عمروا رضي الله عنه اضطره إلى ذلك، تحمل مسئولية فتحها، فأذن له به عمر رضي الله عنه. بل طبقا لرواية العلامة البلاذري (و هو مؤرخ ثقة معروف) إن عمروا لم ينتظر أن يصل إليه إذن عمر رضي الله عنه ، و توجه تلقاء مصر. و من المعروف أن الشروط التي تم بموجبها فتح مصر و الإسكندرية، والشروط الأخرى المذكورة في الاتفاقية،كان أملاها عمرو بن العاص رضي الله عنه من عند نفسه، ثم أخبر بها عمر رضي الله عنه، موافقة عليها. هل إن عمرو بن العاص رضي الله عنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك بخصوص هذه المكتبة؟

و الأعجب من ذلك أن الكتاب الذي كان أرسله عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى مركز الخلافة على إثر فتح الإسكندرية، ذكر فيه كل شئ بتفصيل. فقد كتب بعد بيان الفتح أنه توجد في هذه المدينة أربعة آلاف حمام، أربعة آلاف قصر، و أربعون ألفا من اليهود الذين يعطون الخراج، و أربع مائة منتزه ملكي، و اثنا عشر ألف من الحدائق التي يباع خضارها. و لكننا لا نعثر على ذكر المكتبة المختلفة التي ذكرها أبو الفرج.

إذا أنعمنا النظر في جميع الوقائع التاريخية فيتبين لنا بصورة واضحة أن جميع المكتبات الموجودة في الإسكندرية كانت أبيدت قبل الإسلام بزمن طويل، و قد أفاض المؤرخون في بيان خلفياتها و عللها. و لكن رغم هذه الأحداث لم تقض على الآثار العلمية قضاء تاما، كما أنه لا يمكن القضاء على التراث العلمي لمدينة ظلت لمئات السنين مركزا للعلم في محاولة واحدة. فقبل الإسلام بزمن قصير، كان يوجد في الإسكندرية سبعة أطباء وفلاسفة مشهورين، وهم : اسطفن، جاسيوس، ثادوسيوس، اكيلاوس، انفيلاوس، فلاديوس، يحيى النحوي. و قد عمر الأخير أكثر من أصحابه حتى بقي على قيد الحياة إلى زمن عمرو بن العاص رضي الله عنه. إن مكتبات الإسكندرية كانت قد ضاعت قبل زمن طويل، غير أن التراث العلمي الذي أنجز في العصور المتأخرة كان موجودا وقت فتح الإسلام و في الأحقاب التالية أيضا. فلما بدأ البحث عن الآثار العلمية إبان الخلافة العباسية عثر على خزينة كبيرة في الإسكندرية. و إن عمال الخلفاء العباسيين، هارون الرشيد و مأمون و المتوكل بالله، الذين كانوا يطوفون في أنحاء الشام و فلسطين و آسيا الصغرى و القبرص،بحثا عن المصنفات الطبية و الفلسفة، رحلوا في هذه المهمة إلى الإسكندرية أيضا، و عثروا فيها على كتب كثيرة. كتب حنين بن إسحاق أنه طوف في مدن الجزيرة و الشام و فلسطين و مصر، بحثا عن كتاب البرهان لجالنيوس،حتى انتهى به التطواف إلى الإسكندرية، و لكن لم يرعينا و لا أثرا لهذا الكتاب في أي مكان، غير أنه وجد بعض أجزاء غير منسقة لهذا الكتاب في دمشق. إن إخفاق حنين في مهمته كان بسبب أنه المكتبات القديمة كانت قد

ضاعت قبل الإسلام بزمن طويل، لكنه ظفر بجميع المصنفات التي كانت أنجزت في العصور المتأخرة و كانت محفوظة لوقت مجيء الإسلام. كما وجدت مصنفات الأطباء و الفلاسفة السبعة المذكورين أعلاه بأسرها، و تم نقلها إلى اللغة العربية، و تلقت كتب يحيى النحوي اعتناء أكبر، و فيما يلي نذكر بعض كتبه التي ترجمت إلى اللغة العربية:

تفسير كتاب فاطيغورياس لأرسطاطاليس، و تفسير كتاب أنالوطيقاي الأولى لأرسطاطاليس، و تفسير كتاب أنالوطيقاي الثاني لأرسطاطاليس، و تفسير كتاب طوبيقا لأرسطاطاليس، و تفسير كتاب السماع الطبيعي لأرسطاطايس، و تفسير كتاب الكون و الفساد لأرسطاطايس، وتفسير كتاب ما بال لأرسطاطايس وتفسير كتاب الفرق لجالنيوس و تفسير كتاب الصناعة لجالنيوس، و تفسير كتاب النبض الصغير لجالنيوس،وتفسير كتاب أغلوفن لجالنيوس، و تفسير كتاب الاسطقعات لجالنيوس، و تفسير كتاب القوى الطبيعية لجالنيوس ، و تفسير كتاب التشريح الصغير لجالنيوس، و تفسير كتاب العلل و الأمراض لجالنيوس، و تفسير كتاب تصرف علل الأعضاء الباطنية لجالنيوس، و تفسير كتاب النبض الكبير لجالنيوس، و تفسير كتاب الحميات لجالنيوس و تفسير كتاب البحران لجالنيوس،وتفسير كتاب أيام البحران لجالنيوس و تفسير كتاب منافع الأعضاء لجالنيوس وتفسير كتاب تدبير الأسعار لجالنيوس، و تفسير كتاب المزاج لجالنيوس، و جوامع كتاب الترياق لجالنيوس، وجوامع كتاب الفصد لجالنيوس، و كتاب الرد على برقلس، و كتاب في أن

كل متناه فقوته متناهية، و كتاب الرد على أرسطاطاليس، وكتاب الرد على تطورس، و شرح كتاب ايساغوجي لغرفوريوس. هذا و هناك كتب أخرى نجد تفاصيلها في طبقات الأطباء وكتاب الفهرست لابن النديم. فلو كانت مكتبة الإسكندرية ضاعت على أيام عمرو بن العاص فكان من اللازم أن تضيع مصنفات يحيى النحوي قبل غيرها، فإنه كان معاصرا لعمرو بن العاص و- فيما يقول أبو الفرج - ناظر هذه المكتبة.

و ملخص القول إن التراث العلمي الذي كان متواجدا وقت مجئ الإسلام في مصر و الإسكندرية و غيرها من المدن لم يضيع البتة، غير أن الذي كان قد ضاع منه قبله لم يكن يستطيع أحياها مرة ثانية. و إن التاريخ يدلنا أيضا على أنه حينما سلم شئ من الزمان القديم من الضياع لسبب ما، فإنه لم يضع قط في ظل الإسلام، بل احتفظ به تذكارا بكل تقدير في العصور المتأخرة. كتب ابن البندي،الذي كان ينحدر من مصر و كان نابغة في علم الاصطرلاب إن الوزير أبا القاسم على بن أحمد الجرجاني قام باستعراض مكتبة القاهرة عام ٤٣٥هـ، و أمر القاضي أبا عبد الله القضاعي و ابن خلق الوراق بإعداد فهرس لكتبها و ترميم ما أصابه الخلل أو التلف من جلودها، فاصطحب هو هذين الشيخين إليها لكي ينظر هناك الكتب التي يعجب ذوقه. فالكتب التي كانت في النجوم و الهندسة و الفلسفة بلغ عددها ستة آلاف كتاب. و هنا رأى كرة من الصلب كان صنعه بطليموس، و لما أراد أن يقدر قدمها فثبت بالحساب أن الكرة ترجع إلى ٢٢٥٠ سنة ماضية. و في هذا المكان نفسه عثر على كرة قضية

أخرى كان صنعها أبو الحسن الصوفي لعضد الدولة، و كان وزنها ثلاثة آلاف درهم، و كانت اشتريت بثلاثة آلاف دينار.

و رغم أننا قد حكمنا في هذا البحث بالأصول الاجتهادية، فلا نحفل بعدها بأن المؤرخين الأوربيين يوافقوننا فيه أم لا؟ مع ذلك نرى من اللازم أن نقول، تهدئة لبال المقلدين و لسريعي التصديق لأوربا بوجه خاص، إن هذه القصة كانت تسلم بها في أوربا كلها سابقا، و لكن مثلما حققت الدراسات و الأبحاث التاريخية الرقي والإزهار و ضعفت قد رِدلك قوة تصديق هذه القصة ، حتى إن معظم المؤرخين حاليا يعتبرونها قصة كاذبة منحولة. و قد تحقق هذا القدر من الاعتراف حتى الآن، و أرجو أن يحل يوم تعلن فيه أوربا قاطبة، بعد درس و إمعان نظر زائدين، في صوت واحد:

"كنا نوجه التهمة إليهم فأصبحنا نحن مجرمين"

المراجع:

(١) Prof. G. White D.D. : Aegyptiuea or Observation on Certain Antiquities of Egypt, 1801

(٢) Washington Irving: Successors of Mohammad, P.3 Ball & Sons, London

(٣) Arthur, M.A. : The Saracens, 2nd edition, p. 254, History of Nation Series, 1889.

(٤) Andrev Crichtion: A History of Arabia Ancient and Modern, Vol. I, P. 393.

(٥) Drapper, L.L.D. : History of the Conflict between Religion and Science, 20th edition, London, 1887, p. 103-104

(٦) See " Spectator", June 2, 1888 and June 23, 1888.

(٧) Sedillot, L.B. : Histoire Generale des Arabes, Paris, 1877, P. 155.

(٨) انظر ترجمة و تعليق البروفيسور ديساسي (Desacy) على كتاب عبد اللطيف البغدادي، طبع باريس عام ١٨١٠، ص/٢٤٠

(٩) أبو الفرج بن هارون : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٨، ص/١٠٢-١٠٣

(١٠) انظر ترجمة البروفيسور ديساسي و تعليقاته على تاريخ عبد اللطيف البغدادي ص/ ٢٤٠، طبع باريس عام ١٨١٠

(١١) و في نسخة لهذا الكتاب طبعت بمصر، و تتضمن أخطاء كثيرة، وردت كلمة " أرى" بدل " يذكر". و لو اعتبرنا هذه النسخة صحيحة لم يعد ذلك أكثر من رؤية شخصية لعبد اللطيف.

◆◆◆